

نحو قراءة معاصرة للمتن الصوفي

شرح صلاة القطب ابن مشيش للعالم الصوفي أحمد بن عجيبة الحسني أنموذجا

بقلم د محمد سعيد زكري



1- بين يدي المقال

شرح صلاة القطب ابن مشيش هو تقييد يتضمن بطريقة الإشارة شرح صلاة العارف بالله سيدنا عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم (ت622هـ) أو بعدها بقليل. وهو شرح متوسط يقع في 30 صفحة طبع بدار الرشاد الحديثية بالبيضاء سنة 1999م ضمن مجموع مهم من شروحه نذكر منها:

1- معراج التشوف إلى حقائق التصوف

2- الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الأجرومية

3- شرح خميرية ابن الفارض... الخ

وفي مجلد واحد موسوم ب" كتاب شرح صلاة القطب ابن مشيش لسلسلات نورانية فريدة" جمع وتقديم العمراني الخالدي عبد السلام.

وقد اخترته من بين الكثير من شروح أحمد بن عجيبة ليكون موضوع هذه المقالة بالنظر للأهمية والمكانة المتميزة التي تحتلها الصلاة المشيشية في حلقات الدرس الصوفي، وحاولت أن أتناوله من خلال مطالب ثلاثة هي على الشكل الآتي:

2:- في ثنايا المقدمة

أولا: مفهوم المقدمة ودورها ومميزاتها

تتميز مقدمة شرح صلاة القطب ابن مشيش بوصفية أساسية وهما: الشمولية والمنهجية فهي مقدمات شمولية باعتبارها تتضمن مجموعة من العناصر التي تفيدي في قراءة الشرح واستيعاب مضمونه وفهم أبعاده ومقاصده. وهيمنهجية باعتبارها تقدم مجموعة من التوضيحات ترفع اللبس عن بعض الإشكالات في خطة الشرح، يقول المرحوم عبد الله المرابط الترغي: " فهي (أي المقدمة) تمهيد للتعرف على المؤلف ومنهجه ومواده ودوافع كتابته"¹ فأحمد بن عجيبة وضع هذه المقدمة لخدمة شرحه والتمهيد لقراءته والاستفادة من مواده، لذلك جاءت لغتها تحفة فنية تتألفها عناصرها في تناسق وانسجام، وكان مجال التعبير بها أرحب، وكانت طبيعتها الجمالية أوفر، إذ تفنن ابن عجيبة في تدبير هذه المقدمة بكافة آفانين النشر الفني.

1: المرابط الترغي عبد الله. فهارس علماء المغرب. ص555.

ثانيا: أسلوب كتابة المقدمة

1- الحمدة:

أول ما يطالع القارئ في هذه المقدمة هو صيغة الحمدة والتصلية، وهي جزء أساسي في المقدمة ككل، حرص فيها أحمد بن عجيبة على أن تكون غاية في التعبير لتحل من عقله وترضي رغبته في الإدلاء بفضل خالقه والتوجه بالمدح والثناء على صدر صدور العالم وسيد ذوي السؤدد ممن تأخر وتقادم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول أحمد بن عجيبة: "نحمدك يا من تجلى لقلوب أوليائه بكمال جماله وبهائه، فتنزهت في رياض ملكوته الأفكار ونشرك يا من تولى أسرار أنبيائه وأصفياؤه، فخاضت في بحار جبروته الأسرار، ونصلي ونسلم على بدرة الوجود ومطلع شمس السعود سيدنا ومولانا محمد الذي من سر ناسوته انشقت الأسرار ومن لاهوت صفاته الأنوار صلاة وسلاما يلقيان بماله من عظيم جاه ومقدار ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار وأهل بيته الأطهار"².

إن الحمدة ثابت أساسي في مقدمة شرح صلاة القطب ابن مشيش، وتنال من ابن عجيبة اهتماما خاصا وهي تستمد مقوماتها من الشعور المتأجج في قلب ابن عجيبة يزيد هذا الشعور تأججا ما كان عليه هذا الأخير من حالة نفسية وهو الشارح والصوفي الذي سلك طريقة الدراوية من أمر الولاية، وهو كفيل بتفجير الصخر فكيف بمن كان في رقة إحساس ابن عجيبة "إنها فيض عاطفة"³ وهذا سر هذه اللهجة الصادقة التي نلمسها في افتتاحية الرجل.

2- الإيجاز:

نسجل كذلك أن ابن عجيبة في هذه المقدمة النظرية سلك سبيل الإيجاز، حيث حمل تراكيبها القليلة دلالة التعبير عن أهدافه التي ينوي تحقيقها في الشرح وطريقة تقديمه ودوافعه إلى كتابته. فانتمى لها من اللغة ما يناسب هذا الغرض، وحرص على أن تكون بعيدة كل البعد من كل اغتراب "سليمة من الحشو والزوائد، مؤدية للمعنى من غير إحداث توتر للقارئ أو إزعاج له"⁴.

3- صياغة الترجمة:

تظل الميزة الكبرى لدى ابن عجيبة في مقدمة شرح صلاة القطب ابن مشيش صياغة ترجمة الشيخ عبد السلام ابن مشيش وتشكيلها، حيث جعل من ترجمته تحفة فنية تتألف عناصرها في تناسق تام، يقول أحمد بن عجيبة: "فهو الشيخ الإمام، العارف الواصل الولي الكبير والقطب الشهير، شمس زمانه وفريد عصره وأوانه، سيدنا مولانا عبد

2: ابن عجيبة. شرح صلاة القطب ابن مشيش. ص10

3: شقور عبد السلام. القاضي عياض الأديب. ص163

4: المرابط الترغي عبد الله. فهارس علماء المغرب. ص558

السلام ابن مشيش بالميم وربما قيل بالباء، وإبدال الباء بالميم لغة مازنية، ومعناه الخادم الخفيف، الحادق اللبيب، ابن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار، ومعناه بلغة البربر بكرابية⁵. هكذا يقدم ابن عجيبة من ترجم له بهذه التحليات الرائعة، وبهذه العبارات الفنية الرائقة، فلا يكاد القارئ يتخلص من حلاوة التحليات وتأثيرها حتى يقع في أسير منطوق تلك التحليات، التي تعبر عن مضمون الترجمة تعبيراً منسجماً ومتسقاً.

ثالثاً: مكونات المقدمة:

تتألف مقدمة شرح صلاة القطب ابن مشيش من ثلاث ثوابت منهجية رئيسية هي:

1- الحمد والتصلية:

الحمدلة ثابت أساسي في مقدمة شرح صلاة القطب ابن مشيش وغيرها من مقدمات شروحه الإشارية الأخرى وتنال منه اهتماماً خاصاً، وهي تأخذ صورتها النهائية من "ما يعرف عن الرجل من لون ثقافته" وهي كجزء من المقدمة ومن العمل ككل، يحرص فيها الكاتب على أن تكون غاية في التعبي، تحصل معها كل أصناف الإغراء والإثارة، مما يطيقه اللفظ ويتحملة التركيب⁶ فكانت صيغة يتفنن فيها ابن عجيبة لتحل "من عقاله وترضي رغبته في الإدلاء بفضل خالقه والتوجه بالتعظيم والتبجيل لمن كان سبب هديه ورشاده"⁷

2- أسباب كتابة الشرح:

ولقد أثبت ابن عجيبة هذه الفقرة في مقدمة شرحه ليبين أن شرح صلاة القطب ابن مشيش كان نتيجة سبب كان وحده كافياً ليرسم دوافع العمل في هذا الشرح، وكان دافعاً أيضاً ليحرك أحمد بن عجيبة نحو ممارسة هذه العملية، وليسهل عليه مجابهة النص وشرح مواده، هذا السبب أجمله ابن عجيبة في الفقرة التالية: "وبعد فهذا شرح لطيف على تصلية القطب الجامع سيدي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله بذكره، وأفاض علينا من صيب فيضه أمين، ندبني إليه شيخنا العارف الرباني قدوة السائرين ومربي الواصلين سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني فأجبتة إلى ذلك رجاء التحقيق بمحبته والشرب من فيض مدده، ولنقدم بين يدي الكلام ترجمة الشيخ وذكر شيء من كلامه"⁸.

3- التعريف بصاحب النص:

لهذه الفقرة أهمية بالغة في عملية الشرح، إذ كان التقديم بها ضرورياً في نظر ابن عجيبة لاستكمال المعارف المرتبطة بالنص وصاحبه. فهي كما نرى فقرة يقوم العمل فيها على التعريف بصاحب النص عبد السلام ابن مشيش، فتورد ما يتعلق بأخباره وأحواله وبعض وصاياه ووقائع وفاته، يقول ابن عجيبة: "أما ترجمته فهو الشيخ الإمام العارف الواصل الولي الكبير والقطب الشهير شمس زمانه وفريد عصره وأوانه سيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش... توفي

⁵: ابن عجيبة. شرح صلاة القطب ابن مشيش. ص 11

⁶: المرابط الترغي عبد الله. المرجع السابق. ص 556

⁷: نفسه. ص 556

⁸: ابن عجيبة. المرجع السابق. ص 10

رضي الله عنه شهيدا سنة 622هـ أو فيما بعده بقليل وله أخوان موسى ويملاح، ومن بني الشفشايون القاطنون بفاس، ومن بني يملاح سيدي عبد الله بن إبراهيم نزيل وزان، وله من الأعمام ستة يونس وعلي وملهي، وميمون والفتوح والحاج... وأما كلامه في الحقائق والوصايا فقال رضي الله عنه في بعض كلامه " الزم الطهارة من الشكوك، كلما أحدثت تطهرت ومن تدنس الدنيا كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوجه ماأفسدت بالوهم"⁹.

3: عملية الشرح

إذا كانت عملية الشرح تعني حسب معناها اللغوي والاصطلاحي التفسير والتوضيح والكشف والتبين والتأويل... الخ فإن عملية التوضيح والكشف هاته تعني عند ابن عجيبة " الكشف عن إمكانات الأدبية بإزالة الحواجز ورفع الموانع، التي تحجب طبيعة العمل وإدراك خصوصيته بفهم صفاته التعبيرية وأبعاده التوجيهية... والتعرف على مكوناته: لغة وتركيبا ومعنى وبلاغة وعروضا وغيرها"¹⁰.

ومعنى هذا، أن عملية الشرح عند ابن عجيبة في بعدها الإجرائي تسلك الخطوات المنهجية التالية:

أولا: معالجة الألفاظ اللغوية:

التي يتركب منها متن نص صلاة المشيشية، وشرحها شرحا معجميا، وتأکید وضعية الاستعمال فيها بتلك الصفة وتلك الدلالة، ومن ذلك قول سيدي أحمد بن عجيبة في شرح لفظه "متدفة" حيث قال: "متدفة أي منصبه بقوة، فالتدقق هو الانصباب بشدة شيئا فشيئا"¹¹.

ثانيا: توضيح العلاقات التنظيمية لمفردات النص:

وذلك باعتبار الواقع الدلالة في التركيب وما يحمله وضعها من معنى تطابق به مقتضى الواقع، ومن ذلك قول ابن عجيبة: " إنه شبه بحر الجبروت برياض مملوءة بماء الغيب، تنصب إلى عالم الشهادة شيئا فشيئا على حسب الإرادة والمشية... وإنما اختار التشبه بالحياض ولم يشبهه بالبحار مناسبة للرياض لأنه لما شبه الملكوت بالرياض ناسب أن يشبه الجبروت بالحياض إذ لايقوم الرياض إلا بالحياض كما لايقوم الملكوت إلا بالجبروت، بل هو عنه كما تعدم"¹².

ثالثا: تقسيم مدلول الألفاظ إلى حسي مادي وآخر قلبي معنوي:

فأحمد ابن عجيبة لايقف عند حدود ظاهر الألفاظ المحسوس ماديًا، وإنما يتجاوز ذلك محاولا استظهار معان أخرى لها صلة بالجانب الروحي دون إغفال مساندة الاتجاه العام لمدلول اللفظة، وهذا ما يدرك بالبصيرة التي هي عين القلب، فعند شرح ابن عجيبة " وانشلي من أحوال" نجدده يقسم مدلول العبارة إلى قسمين ظاهر وباطن حيث يقول: " وانشلي أي اخلعني وانقديني من أحوال جمع وحل وهو الخضخاض أي سلمني من وغيض التوحيد من إضافة المشبه به إلى المشبه أي انقديني من توحيد كالخضخاض بأن يصحبه تكدير وتخليط إما برؤية السوى

9: نفسه. ص10-12

10: المرابط الترغي عبد الله. حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل دراسة في المكونات والاتجاهات. 786/3.

11: ابن عجيبة. المرجع السابق. ص26

12: نفسه. ص26

معه وهو توحيد العوام، وهو مكدر بالأوهام والشكوك والخواطر وإما باعتقاد الحلول والاتحاد، فإن بعض الجهلة اعتقدوا السوى وادعوا حلول الألوهية فيه، وهو مذهب النصارى وبعضهم ادعى وجود السوى لكنه اتحد وامتزج معه الألوهية، وهو كفر حرام، يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم، وأهل التحقيق لم يثبتوا مع الحق سواه وأوا الكل منه وإليه، فالكل دون الله، إن حققته عدم على التفصيل والإجمال¹³

رابعاً: التفسير بالإشارة:

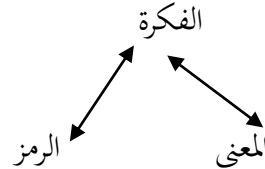
يرى ابن عجيبة أن معنى الكلمة هو إشارتها إلى شيء غير نفسها، فهو يعتبر أن معنى الكلمة هو العلاقة القائمة بين التعبير وما يشير إليه رسمها، بذلك فهو يحدد معنى ألفاظ متن الصلاة المشيشية على أساس العلاقة الثلاثية التي تجمع بين مكوناته، وهي:

1- الرمز اللغوي:

وهو عبارة عن الكلمة المنطوقة المكونة من مجموعة منسقة من الأصوات مثل (ت-د-ف-ق) 2- الفكرة:

وهو المضمون أو المحتوى الذي يوجد في ذهن المستمع حين يسمع الكلمة " التدفق " الانصباب بشدة¹⁴ 3- المقصود بالإشارة:

وهي اللطائف التي تلوح في قلب ابن عجيبة، وبما يفهم معنى ألفاظ الصلاة الإشاري أو الفيضي، ومن ذلك قوله في شرح لفظة " حقيقي " " وإنما عبر بالتحقيق دون التخلق لأن التخلق يكون مجاهدة وكسبا والتحقق يكون غريزة وتمسكا¹⁵، ويوضح الشكل الآتي هذه العلاقة الثلاثية



إذ يتوقف ابن عجيبة في تحديد معاني ألفاظ وعبارات للصلاة المشيشية عند ثلاثة مستويات وهي:

1- المعنى الظاهر: وهو مشتق من عنيت الكلام كذا، أي قصدت كذا فتكون الدلالة الظاهرة للمعنى هو القصد.

2- التفسير: أي التفصيل من أجل شرح الإظهار ما ستر وخفي.

3- الإشارة: وهي عبارة عن لطائف تلوح في قلب الشارح من أنوار إلهية بما يفهم معنى ألفاظ الصلاة وهذه اللطائف اكتسبها الشارح عن طريق ترويض نفسه على فعل الطاعات وسلوك طريق القوم التصوف.

¹³: المرجع السابق. ص32

¹⁴: المرجع السابق. ص26

¹⁵: نفسه. ص28

وفيما يلي قطعة من شرح الصلاة المشيشية أسوقها لتوضيح ما قلت، يقول ابن عجيبة: " واجمع بيني وبينك، طلب دوامه واتصاله وإلا فالجمع حاصل له، فهو كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } والجمع العبودية منفصلة على الدوام أو تقول الجمع، شهود القدرة وحدها والفرق شهود الحكمة وحدها، فأهل الجذب والفناء لا يشهدون إلا الجمع، وأهل السلوك قبل رفع الحجاب لا يشهدون إلا الفرق، وأهل البقاء يشهدون الجمع في عين الفرق والفرق في عين الجمع فهم مجموعون في فرقهم مفروقون في جمعهم لا يجمعهم جمعهم عند فرقهم ولا فرقهم عن جمعهم رضي الله عنهم¹⁶ .

خامسا: الاستطراد

وهو يأتي لتوسعة مادة الشرح، وذلك باستحضار النصوص التي تناسب بهذه الصفة أو تلك مع مواد الشرح كله ويأتي وجودها ضمنه، فالنص الصلاة المشيشية هو نتاج لبيئة ثقافية معينة، وهذه البيئة تتمثل ملامحها في النص لغة وتصورا من جهة، وهو يتشابه بشكل أو بآخر مع غيره من النصوص الصوفية الأدبية... من جهة ثانية، بحيث لا تظهر هذه العلاقة التشاركية إلا من خلال عملية التداعي الذهنية التي لا تنضبط عند ابن عجيبة إلا لضابط الانحصار وعناصر التذكر. فكان هذا التذكر أو الاستطراد يتم عنده عن طريق :

أ- استثمار النصوص القرآنية والحديثية، وإما باستثمار النصوص الأدبية وأيضا عن طريق استثمار النصوص الصوفية وحكمهم، ومن النماذج المعبرة عن ذلك هذه القطعة التي يقول فيها ابن عجيبة: " وكان صاحب هذه الرؤية عارفا مفتوحا عليه، فإن نفذت بصيرته إلى شهود أصل الأصول والفروع، وهي العظمة الأزلية اللطيفة، قبل أن تتجلى وتعرف وقد أشار إليها ابن الفارض بقوله:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى	ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها	قديما ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة	بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فقلت:

" إذا حسبت نفس في سجن الهوى الذي .	تقيد به العقل في قهر قبضة .
وأشغلها علم الصواف لحكمة .	فلم تر إلا الكون في كل وجهة .
فذلك عين السلك وهم ثبوتها .	وناظره المحجوب في سجن ظلمة .

وفي ذلك يقول القائل:

وإن ألحقت الفروع بأصلها . وخاضت بحار الجمع في كل لحظة .
فذاك الذي يسم بلاهوت سره . وعارفه حقا يهنأ يمكنه¹⁷

¹⁶: المرجع السابق، ص38
¹⁷: المرجع السابق، ص25

سادسا: استخلاص الفوائد والعبر:

يهدف ابن عجيبة في شرحه إلى استخراج الفوائد واستنتاج العبر، ما تحمله عبارات الصلاة المشيشية من معان وإشارات، فالمقصود من تدبر الصلاة وتفهمها وشرحها هو أخذ العبرة وجني الفائدة، ولذلك كثيرا ما نجد في صفحات هذا الشرح عبارات تدل على ذلك من قبيل: "تبي... والحاصل أن... الخ.

4:- خاتمة

تبقى قيمة شرح صلاة القطب ابن مشيش لأحمد بن عجيبة واضحة جلية، إذ هي تكشف عن:

1- لون من الشرححاول المتصوفة أن يجيروا عليه في معاملتهم للنصوص، وخاصة إذا كانت هذه النصوص ينتظمها سياق ثقافي يرتبط بالتصوف.

2- عن مستوى التعامل مع مواد نص الصلاة المشيشية عند أحمد ابن عجيبة، والذي يركز في شرحه على طريق الإشارة، ليرسم لنا معالم اتجاه الشرح الفيضي أو الإشاري، مستعينا بما قدمه شيوخ التصوف من أمثال وأقوال وحكم، ولو وصل حد الاستعانة بهم إلى تبني مواقفهم.

5-لائحة المصادر و المراجع

✓ أحمد بن عجيبة.

شرح صلاة القطب ابن مشيش. جمع وتقديم العمراني الخالدي عبد السلام. دار الرشاد الحديثية البيضاء. ط

1 سنة 1999.

✓ شقور عبد السلام

القاضي عياض الأديب. عبد السلام شقور. دار الفكر المغربي. ط1. سنة 1983م.

✓ المرحوم د المرابط الترغي عبد الله

فهارس علماء المغرب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان. ط1. 1999م.

حركة الأدب بالمغرب على عهد المولى إسماعيل. إشراف د. محمد الكتاني. رسالة دكتوراه في الآداب